الكعبـــة

ودارت الأيام ، وأصبح أبرهة ملكًا على الحبشة ، وفيها دين النصرانية . وحارب أبرهة اليمن واستولى عليها .

وغرَّه أن الحبشة بنصرانيتها ، غَلَبَتْ اليمن بيهوديتها ، فتملَّكه الغرور ، واندفع يُوطِّد للنصرانية ، ويثبتُ مجْدها ويُعلى من شأنها .

* * *

وَرَمْزُ الأديان معابدُها ، ومن أجل ذلك يُفْرغ المتدينون قُصارى جُهدهم فى تشييدها وتعميرها ، وهندستها وتنظيمها ، وجَلْب العُباد إليها .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

(التوبة الآية ١٨)

وبنى أبرهة كنيسته ، وعلَّى وشيَّد ، وشرَّف ومجَّد ، ولكنَّ الناس عنه وعن كنيسته منصرفون .

والناس من أطراف الجزيرة العربية ، وما حول الجزيرة ، وفى اليمن والحبشة ، يولُّون وجوههم شَطْرَ الكعبة فى الحجاز ، يحجُّون ويتبركون .

والكعبة إذ ذاك مربض الأصْنام ، ومثْوى الأوثان ، ومعقِل الشِّرك والوثنية . وهذه ياقوم كنيسة النصرانية ، فمالكم لا تعرجون ، وعليها لا تقبلون !

* * *

وكان يغيظه أن أصحاب الكعبة يدلُّون ويفخرون ، بأنها البيت العتيق ، ذو المجد التليد ، وأنه أول بيت وضع للناس ، بناه إبراهيم خليل الله ، وابنه إسماعيل رسول الله ورئيب العرب .

وكان تنازع البقاء من جديد بين دينَيْن ومعبديْن

وانتصب لحرب البقاء بينهما ميدانان ، فى اليمن ميدان ، وفى الحجاز ميدان .

* * *

وتسْبقُ الحروبَ دائما أيامُ التعبئة ، وتُعَبِّئُ المعسكرات كل قواها ، وتتربَّص الدوائر ، وتتحيَّن الفرص ، حتى يحين الحين ، وتنطلق الشرارة الأولى ، فتندلع النار ، وتثور الأرض ومَنْ عليها .

وكان أن تسلل رجلٌ أحمق عربيّ ، من قبيلة كنانَة ، إلى كنيسة أبرهة ، وإلى أقدسِ مكانٍ فيها ، إلى المذْبح ، وهو يُساوى المحرابَ فى مساجد المسلمين ، مَوْقفِ إمَام للمصلين فى الصلاة ، ومَجْلس الشيخ فى تلاوة القرآن .

وفى المذْبحِ من الكنيسة ، وفى غَفْلَةِ الحراس والعبَّاد ، قعد هذا الأحمق ، ثم قام ، وترك من ورائه نجاسةً وقذارة .

عقلٌ صغير ، ونفسٌ أصغر .

وأصغرُ من الصَّغار ، ذلك الذى يخفُّ ويتزعْزع ويفور للصغيرة .

فما كانت الفَعْلة لتثير مَلكًا متَديِّنًا ، تشرَّب قلبهُ التسامح والتوقىَّ من الشرور ، والحذرَ من غَدْر الانبعاث وراء الغضب .

ولو كان تذكَّر المسيحيَّة السَّمحة ، التى توصى بأنَّ مَنْ ضربك على خدِّك الأيسر ، فأدرْ له خدَّك الأيمن ، وما كان هاج ولا ماج ، ولا أقام الدنيا وأقعدها .

* * *

فأين أنت يا أبرهة ، يا حامل لواء الدين ، والغاضب للمعبد ، حين تنفخ فى الصُّور ، وتهيجُ القوم ، وتُجمِّع الجيوش ، وتسوق فى مقدمتها الفيلة الشداد الغلاظ ، يتزعمهم فيلك الأبيض ؟

جيشٌ جرار ، كان يمكن أن يُساق للخير والتعمير ، فتسوقُه لهدم بيت ؟ لهدم الكعبة ، منافسة الكنيسة ، والتى أغاظَكَ رَجُلها الكِنانُى الأحْمَق من رجالها .

* * *

ووصل أبرهة بجيوشه ، حتى وقف على باب مكة ، وأرسل فى طلب أصحاب البيت ، وخيَّرهم بين التسليم والتدمير .

فكانوا أعقل منه ، وأرشد رأيا ، وتركوا له مكة وأخلَوْها ، وتفرقوا فى الشعاب وسفوح الجبال ، وأسلموا أمرهم لله .

وقال له شيخ سَدَنَة البيت وخُدَّامه الشيخ عبد المطلب :

يا أبرهة ، إنا لنْ نقدر عليك ، فاتّجه بحربك إلى ربِّ البيت ، وربُّ البيت يحميه ، وكان ذلك دعاء عليه ، واستعانةً بالله على عدوِّ الله .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(إبراهيم الآية ٤٢)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾

(الفيل الآيات ١-٥)

ولعل المراد بالحجارة الصغيرة ، جراثيم الأمراض ، تفشّت فيهم ، وفتكت بهم ، فأنهكت قواهم ، وهرّأت جُلودهم ، وسوّست عظامهم ، وأفنتهم ، فجعلتهم رِمَمًا وجِيَفًا .

فمثلهم كمثل الزّرع ، إذا أكلته البهائم وهضمته فى كروشها ، وأخرجته روثًا قذرًا ، تشمئز منه النفوس ، وتتقزّرُ منه العيون .

* * *

ولحكمةٍ سابقةٍ فى علم الله ، أن تُدرك عناية الله البيتَ الحرام ، وتحميَ الكعبة من أصحاب الفيل ، فى تلك السنة المباركة ، التى ولد فيها النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ لتكون فيما بعد كعبةً للمسلمين ، وقبلتهم فى صلاتهم ، ورمزَ دينهم ، ومزارَهم فى حَجِّهم ، ومركز دائرة اجتماعهم ، وتعارُفهم

﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾

(الحج الآية ٢٨)

* * *